أشهر المفتين من أهل الكوفة

• **ومن أهل الكوفة:**

سعيد بن جبير - رضى الله عنه -

هو سعيد بن جبير فتى حبشى فى الأصل، عربى الولاء لم ينقص لونه الأسود وشعره "المفلفل" من قدره وشخصيته وخاصة إنه أدرك منذ نعومة أظفاره قيمة العلم والتقى حتى أصبح من أجل فقهاء العلم فى عصره.

وقد أخذ الفتى سعيد بن جبير العلم عن طائفة من كبار الصحابة من أمثال أبى سعيد الخدرى، وعدى بن حاتم الطائى..وأبى موسى الأشعرى، وأبى هريرة الدوسى.. وعبد الله بن عمر،وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وعنهم أجمعين.

بيد أن أستاذه الأكبر، ومعلمه الأعظم كان عبد الله بن عباس، حبر أمة محمد، وبحر علمها الزاخر.

لزم سعيد بن جبير عبد الله بن عباس لزوم الظل لصاحبه.. فأخذ عنه القرآن وتفسيره، والحديث وغريبه.. وتفقه على يديه فى الدين، وتعلم منه التأويل.. ودرس عليه اللغة، فتمكن منها أعظم التمكن.. حتى غدا وما على ظهر الأرض أحد من أهل زمانه إلا وهو محتاج إلى علمه.

ثم تنقل فى ديار المسلمين بحثاً عن المعرفة فلما اكتمل له ما أراد من العلم، اتخذ "الكوفة" داراً له ومقاماً. وغدا لأهلها معلماً وإماماً.

كان يؤم الناس فى رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود.. وأخرى بقراءة زيد بن ثابت.. وثالثة بقراءة غيرهما، وهكذا.

وكان إذا صلى منفرداً فربما قرأ القرآن كله فى صلاة واحدة، وكان إذا مر بقول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[1]. أو مر بنحوها من آيات الوعد والوعيد، اقشعر جلده.. وتصدع فؤاده.. وسالت دموعه.. ثم لايزال يبدأ فيها ويعيد حتى يوشك أن يقضى نحبه.

---

(١) سورة غافر الآيتان ٧٠- ٧٢.

وقد دأب على شد رحاله إلى البيت الحرام كل عام مرتين.. مرة فى رجب محرماً بعمرة، وأخرى فى ذى القعدة محرماً بحج.

وقد كان طلاب العلم وشداة الخير والبر والنصح، يتوافدون على "الكوفة" لينهلوا من مناهل سعيد بن جبير الثرية العذبة.. ويغترفوا من هديه القويم.

وقد كانت "الكوفة" حين اتخذها سعيد بن جبير دار إقامة له، خاضعة للحجاج ابن يوسف الثقفى.. إذ كان الحجاج يومئذ والياً على "العراق"، والمشرق، وبلاد ما وراء النهر، وكان يتربع حينئذ على ذروة سطوته وسلطانه.. وذلك بعد أن قتل عبد الله بن الزبير، وقضى على حركته.

وأخضع "العراق" لسلطان بنى "أمية"، وأخمد نيران الثورات القائمة هنا وهناك.. وأعمل السيف فى رقاب العباد .. وأشاع الرعب فى أرجاء البلاد.. حتى امتلأت القلوب رهبة منه وخشية من بطشه.

ثم شاء الله أن يقع صدام بين الحجاج بن يوسف الثقفى وبين عبد الرحمن ابن الأشعث أحد كبار قواده.

وأن يتحول الصدام إلى فتنة أكلت الأخضر واليابس.. وتركت فى جسم المسلمين جراحات غائرة.

اغتنم عبد الرحمن بن الأشعث هذه الفرصة، ودعا الفقهاء والقراء إلى مؤازرته.

فاستجابت له كوكبة من جلة التابعين وأئمة المسلمين، وعلى رأسهم سعيد ابن جبير، وعبد الرحمن بن أبى ليلى.. والشعبى، وأبو البخترى، وغيرهم، وغيرهم الكثيرون.

ودارت رحى الحرب بين الفريقين، وكان النصر فيها أول الأمر لابن الأشعث ومن معه على الحجاج وجنوده.

ثم بدأت كفة الحجاج ترجح شيئاً فشيئاً.. حتى هزم ابن الأشعث هزيمة منكرة.. وفر ناجياً بنفسه. واستسلم جيشه للحجاج وجنوده.

أمر الحجاج مناديه أن ينادى فى المقاتلين المهزومين، وأن يدعوهم لتجديد بيعته.

فاستجاب أكثرهم له، وتوارى بعضهم عنه.

وكان بين المتوارين سعيد بن جبير - رضى الله عنه وأرضاه-.

وظل يضرب فى أرض الله الواسعة مستخفياً عن الحجاج وعيونه حتى لجأ إلى قرية صغيرة فى أراضى مكة.

وبقى على حاله هذه عشر حجج كاملات كانت كافية لأن تطفئ نيران الحجاج المتقدة فى قلبه، وأن تزيل ما فى نفسه من ضغن عليه.

بيد أنه حدث ما لم يكن يتوقعه أحد.. ذلك أنه قدم على مكة وال جديد من ولاة بنى "أمية".. هو "خالد بن عبد الله القسرى".

فتوجس أصحاب سعيد بن جبير خيفة منه، لما كانوا يعرفون من سوء سيرته، وتوقعوا الشر على يديه.

فجاء بعضهم إلى سعيد وقالوا له:

إن هذا الرجل قدم مكة، وإنا - والله- لا نأمنه عليك.. فاستجب لطلبنا، واخرج من هذا البلد.

فقال: والله لقد فررت حتى صرت استحى من الله.. ولقد عزمت على أن أبقى فى مكانى هذا.. وليفعل الله بى ما يشاء.

وبالفعل ما أن علم بمكان سعيد بن جبير حتى أرسل إليه سرية من جنوده، وأمرهم أن يسوقوه مقيداً إلى الحجاج فى مدينة "واسط"[١].

فأطبق الجند على بيت الشيخ.. وألقوا القيد فى يديه على مرأى من بعض أصحابه.. وآذنوه[٢] بالرحيل إلى الحجاج، فتلقاهم هادئ النفس مطمئن القلب.

ثم التفت إلى أصحابه وقال:

ما أرانى إلا مقتولاً على يدى ذلك الظالم .. ولقد كنت أنا وصاحبان لى فى

---

(١) واسط: مدينة واقعة بين البصرة والكوفة، وقد سميت بذلك لأنها تقع فى وسطهما، فتبعد عن كل منهما خمسين ميلاً.

(٢) آذنوه: دعوه وأعلموه.

ليلة عبادة، فاستشعرنا حلاوة الدعاء فدعونا الله بما دعونا ، وتضرعنا إليه بما شاء أن نتضرع.. ثم سألنا الله عز وجل أن يكتب لنا الشهادة، وقد رزقها الله لصاحبى كليهما، وبقيت أنا أنتظرها.

ثم إنه ما كاد ينتهى من كلامه حتى طلعت عليه بنية صغيرة له، فرأته مقيداً والجند يسوقونه، فتشبثت به، وجعلت تبكى وتنشج.. فنحاها عنه برفق، وقال لها: قولى لأمك يا بنية: إن موعدنا الجنة إن شاء الله تعالى.. ثم مضى.

بلغ الجند بالإمام الحبر العابد الزاهد، التقى النقى الورع مدينة "واسط"، وأدخلوه على الحجاج.

فلما صار عنده نظر إليه فى حقد وقال: ما اسمك؟.

فقال: سعيد بن جبير.

فقال: بل شقى بن كسير[1].

فقال: بل كانت أمى أعلم باسمى منك.

فقال: ما تقول فى محمد؟.

قال: تعنى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؟!.

فقال: نعم.

قال: سيد ولد آدم، النبى المصطفى.. خير من بقى من البشر، وخير من مضى.. حمل الرسالة، وأدى الأمانة.. ونصح لله، ولكتابه، ولعامة المسلمين، وخاصتهم.

قال: فما تقول فى أبى بكر؟.

قال: هو الصديق خليفة رسول الله ﷺ، ذهب حميداً، وعاش سعيداً.. ومضى على منهاج النبى ﷺ، لم يغير ولم يبدل.

قال: فما تقول فى عمر؟!.

قال: هو الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل.. وخيرة الله وخيرة

---

(١) كسير: ضد جبير.

رسوله، ولقد مضى على منهاج صاحبيه.. فعاش حميداً، وقتل شهيداً.

قال: فما تقول فى عثمان.

قال: هو المجهز لجيش العسرة[١].. الحافر بئر[٢] رومة.. المشترى بيتاً لنفسه فى الجنة.. صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه.

ولقد زوجه النبى بوحى من السماء، وهو المقتول ظلماً.

قال: فما تقول فى على؟!.

قال: ابن عم رسول الله ﷺ، وأول من أسلم من الفتيان.. وهو زوج فاطمة البتول[٣].. وأبو الحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة.

قال: فأى خلفاء بنى "أمية" أعجب لك؟.

قال: أرضاهم لخالقهم.

قال: فأيهم أرضى للخالق؟.

قال: علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم.

قال: فما تقول فى؟.

قال: أنت أعلم بنفسك.

قال: بل أريد علمك أنت.

قال: إذن يسوءك ولا يسرك.

قال: لابد من أن أسمع منك.

قال: إنى لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى.. تقدم على أمور تريد بها الهيبة، وهى تقحمك فى الهلكة.. وتدفعك إلى النار دفعاً.

قال: أما والله لأقتلنك.

---

(١) جيش العسرة: جيش غزوة تبوك.

(٢) بئر رومة: بئر فى عقيق المدينة المنورة اشتراها عثمان بن عفان بمائة ناقة، وتصدق بها على المسلمين.

(٣) البتول: النقية الطاهرة.

قال: إذن تفسد على دنياى، وأفسد عليك آخرتك.

قال: اختر لنفسك أى قتلة شئت.

قال: بل اخترها أنت لنفسك يا حجاج.. فوالله ما تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة.

قال: أفتريد أن أعفو عنك؟.

قال: إن كان عفو فمن الله تعالى.. أما أنت فلا براءة[١] لك ولا عذر.

فاغتاظ الحجاج وقال: السيف والنطع[٢] يا غلام.

فتبسم سعيد، فقال له الحجاج:

وما تبسمك؟!.

قال: عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عليك.

فقال: اقتله يا غلام.

فاستقبل القبلة وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ[٣] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا[٤] وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥].

فقال: احرفوا[٦] وجهه عن القبلة.

فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا[٧] فَثَمَّ[٨] وَجْهُ اللَّهِ﴾[٩].

فقال: كبوه[١٠] على الأرض.

فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[١١].

فقال: اذبحوا عدو الله، فما رأيت رجلاً أدعى[١٢] منه لآيات القرآن.. فرفع سعيد كفيه وقال: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدى.

---

(١) لا براءة لك: لا عفو من عندك.
(٢) النطع: بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالقتل.
(٣) فطر: خلق وأنشأ.
(٤) حنيفاً: مائلاً إلى الدين القيم.
(٥) سورة الأنعام الآية ٧٩.
(٦) احرفوا وجهه: أميلوا وجهه.
(٧) تولوا: تتجهوا.
(٨) ثم وجه الله: هناك قبلة الله التى ترضاها.
(٩) سورة البقرة الآية ١١٥.
(١٠) كبوه على الأرض: اقلبوه على الأرض.
(١١) سورة طه الآية ٥٥.
(١٢) أدعى منه: استحضاراً منه.

لم يمض على مصرع سعيد بن جبير غير خمسة عشر يوماً حتى حم[١] الحجاج، واشتدت عليه وطأة المرض.

فكان يغفو ساعة ويفيق أخرى..فإذا غفا غفوة صغيرة، استيقظ مذعوراً وهو يصيح:

هذا سعيد بن جبير آخذ بخناقي.. هذا سعيد بن جبير يقول: فيم قتلتني؟!.

ثم يبكي ويقول:

مالي ولسعيد بن جبير؟!! ردوا عني سعيد بن جبير.. فلما قضى نحبه ووري ترابه، رآه بعضهم في الحلم فقال له:

ما فعل الله بك فيمن قتلتهم يا حجاج؟.

فقال: قتلني الله بكل امرئ قتلة واحدة.. وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

* * *

(١) حم: أصابته الحمى.

عامر بن شرحبيل الشعبى - رضى الله عنه -

ولد عامر الشعبى فى "الكوفة" وفيها نشأ وهذا فى خلافة الفاروق رضوان الله عليه لكن المدينة المنورة كانت مهوى فؤاده ومطمح نفسه، فكان يقصدها من حين لآخر ليلقى صحابة رسول الله ﷺ، وليأخذ عنهم، كما كان الصحابة الكرام يؤمون "الكوفة" ليتخذوها منطلقاً للجهاد فى سبيل الله، أو داراً لإقامتهم.

فأتيح له أن يلقى نحواً من خمسمائة من الصحابة الكرام، وأن يروى عن عدد كبير من جلتهم من أمثال: على بن أبى طالب، وسعد بن أبى وقاص، وزيد ابن ثابت.. وعبادة بن الصامت، وأبى موسى الأشعرى، وأبى سعيد الخدرى.. والنعمان بن بشير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس.. وعدى بن حاتم، وأبى هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وغيرهم وغيرهم.

وقد كان الشعبى فتى متوقد الذكاء، يقظ الفؤاد، دقيق الفهم، آية فى قوة الحافظة والذاكرة.. فقد روى عنه أنه قال:

ما كتبت سوداء فى بيضاء قط، ولا حدثنى رجل بحديث إلا حفظته، ولا سمعت من امرئ كلاماً ثم أحببت أن يعيده علىَّ.

وقد كان الفتى مولعاً بالعلم، شغوفاً بالمعرفة، يبذل فى سبيلهما النفس والنفيس، ويستسهل من أجلهما المصاعب.

وقد بلغ من علمه أنه كان يقول:

أقل شىء تعلمته الشعر.. ولو شئت لأنشدتكم منه شهراً دون أن أعيد شيئا مما أنشدته.

وكانت تعقد له حلقة فى جامع "الكوفة" ، فيلتف الناس حوله زمراً زمراً، وأصحاب رسول الله ﷺ أحياء يروحون ويغدون بين أظهر الناس.

بل إن عبد الله بن عمر ﷺ سمعه ذات مرة يقص على الناس أخبار المغازى[1] بخفاياها ودقائقها، فأرهف إليه سمعه وقال:

لقد شهدت بعض ما يقصه بعينى وسمعته بأذنى، ومع ذلك فهو أروى له منى.

---

(١) المغازى: الغزوات الإسلامية.

وشواهد سعة علم الشعبى وحضور ذهنه، غزيرة وفيرة.

ولما آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، كتب إلى الحجاج عامله على "العراق": أن ابعث إلى رجلاً يصلح للدين والدنيا، أتخذه سميراً وجليساً..

فبعث إليه بالشعبى، فجعله من خاصته، وأخذ يفزع إلى علمه فى المعضلات، ويعول على رأيه فى الملمات، ويبعثه سفيراً بينه وبين الملوك.

ولقد بلغ الشعبى فى العلم منزلة جعلته رابع ثلاثة فى عصره.

فقد كان الزهرى يقول: العلماء أربعة.. سعيد بن المسيب فى المدينة، وعامر الشعبى فى الكوفة، والحسن البصرى فى البصرة، ومكحول فى الشام.

لكن الشعبى كان – لتواضعه– يخجل إذا خلع عليه أحد لقب "العالم".

ولقد أوتى الشعبى من بلاغة الكلام، وحسن التصرف فيه ما لم يؤته إلا القلة النادرة من الفصحاء الأبيناء..

من ذلك أنه كلم أمير "العراقيين" عمر بن هبيرة الفزازى فى جماعة حبسهم فقال: أيها الأمير..

إن كنت حبستهم بالباطل، فالحق يخرجهم.. وإن كنت حبستهم بالحق، فالعفو يسعهم.. فأعجب بقوله، وأطلقهم كرامة له.

وعلى الرغم من كمال مروءة الشعبى وعلو منزلته فى الدين والعلم، فقد كان عذب الروح حلو المفاكهة، لا يفوت النكتة إذا لاحت له.

وبعد، فقد عمر الشعبى حتى زاد على الثمانين. فلما لبى نداء ربه وتوفى سنة ١٠٤هـ ، ونعى إلى الحسن البصرى قال: "يرحمه الله فلقد كان واسع العلم.. عظيم الحلم.. وإنه من الإسلام بمكان".

قال مكحول: ما رأيت أعلم من الشعبى، وقال أبو حصين ما رأيت أحداً قط أفقه من الشعبى.

* * *

شريح بن الحارث الكندى - رضى الله عنه -

هو رجل "يمنى" الموطن، "كندى"[١] العشيرة، قضى شطراً غير يسير من حياته فى الجاهلية.

فلما أشرقت الجزيرة العربية بنور الهداية، ونفذت أشعة الإسلام إلى أرض "اليمن"، كان شريح من أوائل المؤمنين بالله ورسوله، المستجيبين لدعوة الهدى والحق.

وكان عارفو فضله ومقدرو شمائله ومزاياه، يأسون عليه أشد الأسى، ويتمنون أنه لو أتيح له أن يفد على المدينة مبكراً ليلقى رسول الله ﷺ قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ، ولينهل من موارده الصافية المصفاة مباشرة لا بالوساطة.. ولكى يحظى بشرف الصحبة بعد أن حظى بنعمة الإيمان.. وبذلك يجمع الخير من أطرافه.. والعلم من جوانبه.. ولكن ما قدر كان.

ولم يكن الفاروق رضوان الله عليه، متعجلاً حين عهد بمنصب من مناصب القضاء الكبرى لرجل من التابعين، على الرغم من أن سماء الإسلام كانت يومئذ ما تزال تتألق بالنجوم المتلألئة من صحابة رسول الله ﷺ... فقد أثبتت الأيام صدق فراسة عمر، وصواب تدبيره.

إذ ظل شريح يقضى بين المسلمين نحواً من ستين عاماً متتابعة من غير انقطاع.. وقد تعاقب على إقراره فى منصبه كل من عمر، وعثمان، وعلى، ومعاوية رضوان الله عليهم أجمعين.

كما أقره على ذلك من جاء بعد معاوية من خلفاء بنى "أمية"، حتى طلب الرجل إعفاءه من منصبه إبان ولاية الحجاج.

وكان قد بلغ السابعة بعد المائة من حياته المديدة الرشيدة الحافلة بالمفاخر والمآثر[٢].

ولقد ازدان تاريخ القضاء فى الإسلام ببدائع من مواقف شريح ، وزها بروائع

---

(١) كندى العشيرة: منسوب إلى كندة (بكسر الكاف وسكون النون) وهى قبيلة عربية عظيمة ظهر منها كثير من المحدثين والعلماء.

(٢) المآثر: الأفعال الحميدة ذوات الآثار الجليلة.

من انصياع[١] خاصة المسلمين وعامتهم لشرع الله الذى يمثله شريح، ونزولهم عند أحكامه.. وامتلأت بطون الكتب بطرائف هذا الرجل الفذ وأخباره، وأقواله وأفعاله.

رضى الله عن الفاروق، فقد زان مفرق[٢] القضاء فى الإسلام بلؤلؤة كريمة الأعراق.. صافية الجوهر.. رائعة المجتلى.. وحبا[٣] المسلمين مصباحاً منيراً، مازالوا حتى اليوم يستضيئون بسنا فقهه لشرع الله.. ويهتدون بنور فهمه لسنة رسول الله.. ويباهون به الأمم يوم القيامة.

ورحم الله شريحاً القاضى، فقد روى عن عمر وعلى وابن مسعود وتوفى سنة ٧٨هـ بعد أن أقام العدل بين الناس ستين عاماً.

* * *

(١) الانصياع: الاتباع.
(٢) المفرق: مفرد وجمعه مفارق... ومفارق القضاء: وجوهه الواضحة.
(٣) حبا المسلمين: منح المسلمين.